جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

دور الاسرة كأداة للضبط الاجتماع

الدكتور حسن الساعاتي

الرياض

1411 هـ - 1990 م

دور الأسرة كأداة للضبط الاجتماعي(*)

الدكتور حسن الساعاتي

دور الأسرة كهيئة للضبط الاجتماعي

التمهيد:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وبعد فاقدم خالص شكري لمن أتاحوا لي فرصة القاء هذه المحاضرة وأقول ان الحديث عن الأسرة طريف وبالغ الأهمية، وبخاصة في عصرنا الحاضر الذي تغيرت فيه أحوال البشر بشكل لافت في حقبة قصيرة من الزمن يمكن تحديد بدايتها تحكمياً بأول النصف الثاني من القرن العشرين الذي يسير في خطى سريعة الى نهايته، وترجع طرافة الحديث عن الأسرة الى أن كل واحد منا يعيش في الأسرة مع أهله، والداً أو ولداً أو ذا قرابة رحم، فيكونون مجموعة ذات كيان خاص يميزها، وذات مصالح مشتركة تربط أفرادها بعضهم ببعض برباط متين، هذه الحقائق عن الأسرة تشد انتباه من ينمي الى علمه أن محاضرة ستلقى حول موضوع الأسرة فيه ركيزة رئيسة، فيخطر في ذهنه تساؤلان هما: ماذا يا ترى يكون الجديد الذي سيستمع اليه عن الأسرة؟ وما هي أهميته البالغة؟

(*) ألقيت هذه المحاضرة بـ «أبو ظبي» بتاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٤٠٩هـ الموافق «١ أغسطس ١٩٨٩م».

أما الجديد عن الأسرة فهو توسمها في شتى أحوالها في زماننا هذا كهيئة أساسية أولى للضبط الاجتماعي، تلك العملية المحورية في التنشئة الاجتماعية التي يتحول فيها الأطفال من كائنات عضوية الى ذوات متشخصنة فيصبح كل منهم شخصاً ذا سمات مشتركة مع غيره من أفراد أسرته، في اطار ثقافة الجماعة التي قد تكون حياً في المدينة أو قرية في الريف، فاذا ما أصبحت هذه السمات المشتركة بين أفراد المجتمع عامة في الأسرة والجماعة والمجتمع، تميزت ثقافته عن ثقافات المجتمعات الأخرى، وهنا يصح القول بأن الأسرة مركز اشعاع رئيس للثقافة في المجتمع، والثقافة كمصطلح في علم الاجتماع هي أسلوب حياة الناس في شتى معاملاتهم الاجتماعية ومختلف علاقاتهم الاجتماعية في المجموعات والجماعات الاجتماعية في المجتمع الذي يعيشون فيه، وكل ما يرتبط بهذا الأسلوب الحياتي من ماديات كالغذاء والكساء والمسكن، وشتى الأدوات والآلات التي تؤمن لهم ألواناً متفاوتة من النعيم، راحة ورفاهية ومتعة، وكل ما يكمن وراء ذلك كله من قيم اجتماعية توجه سلوكهم بعضهم مع بعض في شتى المناسبات ومختلف الأحوال فيصبح بتكرره عادات اجتماعية تتخذ أشكالاً من الأعراف والتقاليد والبدع التي يصعب تغييرها

والذي يجعل الحديث عن الأسرة بالغ الأهمية كونه يتناول وظيفتها في عملية الضبط الاجتماعي، باعتبارها الهيئة الأساسية الأولى التي تمارس الضبط في اطار عملية اجتماعية كبرى وهي التنشئة الاجتماعية لأفرادها، ذكوراً واناثاً، أطفالا وصبية،

وغلماناً وشباناً، مراهقين وبالغين وراشدين، كما هي الحال في مجتمعاتنا العربية، التي لا تنتهي تربية الفرد ورعايته في كنف أسرته، بانتهاء دراسته الثانوية، كما هو شائع في المجتمعات الأوروبية والأمريكية، والضبط الاجتماعي كمصطلح في علم الاجتماع ظاهرة اجتماعية بالغة الأهمية فهو لب عملية التطبيع الاجتماعي، وهو المضمون المركز لعملية التربية الاجتماعية، التي لولاها ما أصبح الطفل من البشر انساناً، يجد الأنس في معاشرة أفراد جنسه يألفهم ويألفونه، أو ينفر من بعضهم ويبتعد عنهم ليندمج مع غيرهم، ويتعامل معهم ويكون علاقات اجتماعية متنوعة، ولذلك يصح القول بأن الانسان حيوان مضبوط اجتماعياً في أقواله وأفعاله، أي في سلوكه الفردي والجمعي

والضبط الاجتماعي نسق من العلاقات الاجتماعية التي تكوِّن نمطاً من الضغط الاجتماعي أو التوجيه الاجتماعي الملزم، الذي تمارسه مختلف المجموعات الاجتماعية والجماعات الاجتماعية والمجتمع ككل على جميع الأفراد للمحافظة على القواعد والمعايير المتوارثة والمتعارف عليها، وكذلك للتوافق مع النظام العام السائد في المجتمع، وتختلف مشاعر الناس بالنسبة للضبط الاجتماعي هذا، فالدول الأوروبية وكذلك الدول الآسيوية والدول العربية أيضاً ترى فيه اشرافاً وتوجيهاً ومراقبة للصالح العام، وذلك لأن مواطني هذه الدول قد اعتادوا تدخل الحكومة في تصريف شئون المجتمع، واطمأنوا الى تركيز السلطة في يدها، ليزيدها قدرة على ذلك، ويكسبها قوة تجعلها مهيمنة مرهوبة الجانب، أما البريطانيون ومن

حذا حذوهم الذين تشبعوا بمبادىء الحرية والقيم الديمقراطية، شكلية كانت أو جوهرية، فهم يرون في الضبط الاجتماعي هيمنة بغيضة، وضغطاً شديداً من جانب سلطة عليا مطلقة غير مسئولة يرفضونه بكل ما وسعهم من قوة، ولا غرابة في ذلك اذ يربي الفرد عندهم على عدم الدخول فيما لا يعنيه، وأن يعنى بشئونه الخاصة فحسب، وهذا هو منتهى الفردية.

ـ الأسرة المعاصرة وأدوارها:

من المفيد قبل تناول مفهوم الأسرة المعاصرة وأدوارها بالتحليل والتبيين توضيح السبب في تفضيل استخدام كلمة الأسرة في هذه المحاضرة على كلمة العائلة، وبادىء ذي بدء نشير الى أن الأفكار حول هاتين الكلمتين في مؤلفات علماء الاجتماع العرب، جد مختلطة فهناك من يرى أنهما بمعنى واحد وأن تفضيل أحديهما على الأخرى يرجع الى مزاج المؤلف، وهناك فريق آخر يفضل كلمة العائلة لأنها أكثر انتشاراً بين العامة في لغتهم الدارجة من كلمة الأسرة، بينما يرى فريق ثالث أن الفرق بين الكلمتين يرجع الى البناء الاجتماعي لكل منهما ووظيفته، أي الى عدد الأجيال والأفراد في كل منهما، ودور كل جيل وموقفه وحقوقه وواجباته، وهذا الرأي البنائي الوظيفي وان أسهم في توضيح الفرق بين مفهومي الأسرة والعائلة، فانه لا يحسم المشكلة تماماً، اذ يظل التساؤل نفسه قائماً، عن أي منهما أكبر عدداً وأكثر أجيالا وأوسع امتداداً وأعقد تشعباً في العلاقات والمعاملات، ولو رجع المعنيون بميدان الأسرة والعائلة في علم الاجتماع الى معاجم

اللغة العربية، لوجدوا الجواب الشافي الذي يكفيهم مئونة التعقب في اعمال الفكر ومحاولة التخيل العلم ـ الاجتماعي (السوسيولوجي) للتفرقة الحاسمة بين المفهومين ـ والمفيد من المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي الذي وضعه العلامة أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي، أن أسرة الرجل رهطه، والرهط ما دون العشرة، ولم يرد لفظ عائلة في مادة عال بمعنى كفل. أعال الرجل كبر عياله، والعيال أهل البيت، أما المعجم الوسيط الذي وضعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة فأشمل وأوضح اذ أفاد أن الأسرة أهل الرجل وعشيرته، وأن العائلة من يضمهم البيت الواحد من الآباء والأبناء والأقارب، وانها بمفهوم الأسرة الممتدة التي أخذت في الأفول كظاهرة اجتماعية في المجتمع العربي لعوامل متعددة ناجمة عن التغير الاجتماعي الاقتصادي الثقافي السريع الحادث في أقطاره بنسب متفاوتة، متفقة مع ظروف كل قطر وأحواله وطبيعته الجغرافية ويتضح من هذا البيان اللغوي والعلم ـ اجتماعي أن مصطلح العائلة لا ينسجم مع الواقع الشائع في العصر الحاضر، وأن مصطلح الأسرة واقعي وصادق في التعبير عن وضعها الآني وما تبقى لها من أدوار في ظل الثقافة المعقدة السائدة

لا خلاف في أن انتشار التعليم بين الجنسين في المدارس والمعاهد والجامعات هو الظاهرة الرئيسة البارزة التي أثرت أعمق تأثير في الأفكار والمعتنقات، فغيرت كثيراً من عادات الناس وأعرافهم وتقاليدهم وظهر ذلك بشكل واضح في علاقاتهم الاجتماعية، وتعاملهم بعضهم مع بعض في مختلف الهيئات الاجتماعية وعلى

رأسها الأسرة التي أخذت في ظل ما ساد من فردية وتحرر، تستقل سكناً وفكراً عن الآباء الكبار الذين يعدون من وجهة نظر أبنائهم جيلا مختلفاً عنهم، يعيش بأفكاره وقيمه ومعتنقاته في الماضي من الزمان الذي سادت فيه عادات وأعراف وتقاليد تنسجم مع أفق ضيق، وفكر محدود، وأمية منتشرة، ومطالب غير ترفية، وتطلعات متواضعة، وحياة مستقرة وادعة، في ظل من القناعة والرضا. وفي الواقع انهم وان كانوا قد كسبوا حريتهم بالبعد عن الجيل الأكبر وكونوا ما يسمى بالأسر النووية التي تقتصر عليهم وعلى أبنائهم فحسب فانهم قد حرموا أنفسهم وأبناءهم رعاية الجيل الأكبر وخبرتهم ونضجهم وحكمتهم في زمان سريع الخطى، الكل فيه يلهثون مهمومين بمشاغل كثيرة قلقين من مشكلات كبيرة.

وفي عصرنا هذا ولأول مرة في تاريخ الأسرة يدخل في بنائها، ويصبح من المرافقين لها، فرد بألف أبدعه عقل الانسان، فخلب لبه وشحن ذهنه بمدخلات لا حصر لها، منها الغث والسمين ومنها الهادي ومنها المضل المبين، ذلكم هو التلفزيون الذي أصبح يحتل مكاناً بارزاً في الأسرة تجلس أمامه الأجيال كلها على السواء في صمت مشدوهين بما يشاهدون ساعات طويلة كل يوم، وهم مسترخون يتقبلون ايحاءاته ويتأثرون بالأفكار المبثوثة منه، سواء أكانت صريحة مباشرة أم تلميحات غير مباشرة، أما اذا سلمت الأسرة منه لأي سبب من الأسباب فان الراديو يحل محله، ويحمله الفرد معه في كل مكان، يأنس به وينصت لما يوحي به من أفكار وينشره من خواطر، وعقله طليق في تصوراته من الكلمة المسموعة لا تشغله أحاسيس الصورة

المرئية فيكون تركيزه أشد وتفكيره أعمق وأوسع، وهكذا أصبح يعيش في كل أسرة من خلال الراديو والتلفزيون أفراد متعددون من الجنسين، يشتركون مع الوالدين في القيام بأهم دور وأخطره وهو التطبيع الاجتماعي، أو التنشئة الاجتماعية، تلك العملية الاجتماعية التي تجعل من أطفال الأسرة أفراداً اجتماعيين، يتعاملون مع غيرهم من الأفراد ويتفاعلون وفق قيم ومعايير اجتماعية محددة تضبط سلوكهم في كل خطوة يخطونها في مسيرتهم في حياتهم الاجتماعية، التي تختلف كل الاختلاف عن حياة الحيوان الطبيعية التي يوجه السلوك فيها دوافع فطرية عامة فحسب.

والتنشئة الاجتماعية كما ذكرنا في البداية عملية اجتماعية كبرى شاملة لعمليات اجتماعية متداخلة فيها ومتكاملة، كعملية التعليم المباشر والمصاحب التي تعرف الطفل أسماء الأشياء التي يسأل عنها وكيفية استعمالها، وعملية التعامل مع غيره من الأفراد وفق مراكزهم ومدى قربهم منه، وعملية التعريف المتدرج ببيئته وما تحتوي عليه من هيئات، ومعالم هامة، وعملية تعريفه كيفية السلوك للحصول على ما يبغيه من بيانات ومعلومات، وأخيراً وليس آخراً عملية الضبط الاجتماعي والهيئات التي تقوم بها كالأسرة وأولي العلم والمتفقهين في الدين، وجهاز الشرطة والجهاز القضائي الذي يشمل رجال النيابة العامة ورجال التشريع القانوني الذين يصوغون مختلف القوانين ورجال القضاء الذين يفصلون بين المتنازعين وفق قواعد العدالة. والضبط الاجتماعي هو العنصر الذي لا غنى للحياة الاجتماعية عنه لحفظ النظام وسيادة الاستقرار والأمن في المجتمع ونشر التماسك بين

أفراده، وهو على هذا الأساس ظاهرة اجتماعية من حيث كونه من طبيعة الاجتماع، أي أنه ناجم عن معاشرة الناس بعضهم بعضاً، ومن حيث أن يتمثل في أساليب ونظم خاصة يسير عليها أفراد المجتمع

دور الأسرة في عمليةالضبط الاجتماعي

بادي الرأي أن الأسرة هي المجموعة الاجتماعية الأولى التي يعيش فيها الفرد ويتلقى منها كل مكوناته الاجتماعية منذ مولده الى أن يكبر، ويبدأ في الانضمام الى مجموعات أخرى في جماعة الحي أو جماعة القرية التي ينتمي اليها، وفي جماعة الحضانة أو روضة الأطفال ثم في الجماعة المدرسية، وتشمل المجموعات الاجتماعية التي يجد الفرد نفسه منتمياً اليها بطبيعة وجوده في الجماعات التي ذكرناها، عصبة الأقران، وثلة الأصدقاء، وزمرة الرفاق في الاهتمامات التي تجمع بينه وبين الأفراد الآخرين في أنشطة مختلفة، وأولوية الأسرة في التعامل مع الفرد في المراحل الأولى من حياته، تجعلها بدون منازع المجموعة الرئيسة ذات التأثير القوي الغالب في حياته، من حيث كونها معلمة مربية ومرشدة، وضابط سلوكه في تعامله وتفاعله مع الأفراد الآخرين الذين تكثر أعدادهم في محيط حياته كلما كبرت سنه، واشتد عوده، وازداد وعيه، وعمق فهمه شئون الحياة، وهكذا تتكون شخصيته بالتدريج وتكتسب طابعها الذي يميزها مدى الحياة

ومهما كانت الأم قوية مهيمنة في الأقل من الأحوال، فان السيطرة في الأسرة في الأعم الأغلب من المجتمعات تكون للأب،

رئيسها وعنوانها وصاحب السلطة فيها، ولذلك فهو يعد المسئول الأول عن ضبط سلوك الأفراد فيها وبخاصة الذكور لأن ارشاد الاناث وتوجيههن وتربيتهن يكون من شئون الأم التي تكتسب من زوجها سلطة تمكنها من القيام بهذا الدور وتعينها على أدائه، وبذلك تكون الأسرة الهيئة الاجتماعية الأولى التي يوضع فيها الأساس الذي يبنى عليه الضبط الاجتماعي ركيزة النظام في المجتمع أما الطريقة المستخدمة في ذلك فهي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، أي باللطف واللين اللذين يجب تقديمهما على الأساليب الأخرى، كالاشارة المانعة، والتأنيب والزجر، والشدة والقسوة، وقد لخَّص ذلك الشاعر الحكيم بقوله الذي يتوافق مع الفروق الفردية بين البشر

تكفي اللبيب اشارة مكتومة وسواه يدعى بالنداء العالي

وسواهما بالزجر من قبل العصا ثم العصا في رابع الأحوال

وفي القرآن الكريم مثال بيِّن للموعظة الحسنة على لسان الحكيم لقمان وهو يعظ ابنه ﴿يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم﴾[1] وهذه هي الدرجة الأولى والأساسية في سلم المواعظ الحكيمة التي يقول فيها ﴿يا بني انها ان تك مثقال حبة من خرذل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله

١ ـ سورة لقمان الآية. ١٣

لطيف خبير * يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور * ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور * واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[1] ولكن هيهات هيهات أن يستمع كل الأبناء مواعظ الآباء الحسنة وتوجيهاتهم الى الخير وأوامرهم لتجنب السوء، فها هو ذا نوح عليه السلام يهيب بابنه آمراً. ﴿يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾[2] فأجابه في عناد واعتداد برأيه ﴿سآوي الى جبل يعصمني من الماء ﴾[3] فكان تعقيب أبيه بما علمه الله سبحانه ﴿. لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ﴾[4] وحدث ما كان متوقعاً ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾[5]

هذا مثل واضح لما يوصف في العصر الحاضر، بالصراع بين جيل السلف من الآباء والأجداد وجيل الخلف من الأبناء والأحفاد الذين جرفهم تيار التغير الاجتماعي الاقتصادي السريع، فجعلهم يتصرفون وهم في عجلة من أمرهم بدون تبصر في الأمور، ولا بعد نظر الى العواقب فأرهقوا والديهم من ناحية، وظلموا أنفسهم بما أصبحوا يعانونه من مشاكل من ناحية أخرى، وهؤلاء ينطبق عليهم

١ - سورة لقمان. الآيات ١٦ - ١٩
٢ - سورة هود. الآية: ٤٢
٣ - سورة هود. الآية: ٤٣
٤ - سورة هود. الآية. ٤٣
٥ - سورة هود. الآية: ٤٣

مثال الابن الشقي المنحرف عن الفطرة العاق لوالديه الذي يهزأ ويسخر من الايمان، والبعث والنشور، ذلك المثال البيِّن الدلالة لعناء الوالدين في تربية الضالين من أبنائهم وهو الوارد في قوله تعالى ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا الا أساطير الأولين﴾[1] إن مصير هذا الابن الضال المتعجرف، ومصير جيله كمصير الأجيال السالفة من أمثالهم محدد في القرآن الكريم في المبدأ الالهي الحكيم ﴿واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[2] والسؤال بهذ الخصوص هو بم يأمر الله تعالى ليضبط سلوك البشر فتكون حياتهم مستقرة مريحة؟ والجواب الحق هو ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[3] تلك هي الموعظة الالهية التي جعلها الله تعالى أساساً لصلاح المجتمع، وما خالفها قوم من الأقوام الغابرة الا أهلكهم الله وقال فيهم ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[4].

ولا شك في أنه مما يخفف على الآباء مشقة دورهم في الضبط

---

١ ـ سورة الأحقاف الآية: ١٧

٢ ـ سورة الاسراء. الآية: ١٦

٣ ـ سورة النحل. الآية. ٩٠.

٤ ـ سورة العنكبوت الآية: ٤٠

الاجتماعي البدء في تربية أبنائهم وضبط سلوكهم منذ نعومة أظفارهم فيصبح السلوك السوي عادة لديهم وفقاً لقول الشاعر الحكيم:

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وييسر عملية الضبط الاجتماعي من غير شك كون الآباء أسوة حسنة لأبنائهم لينسجوا على منوالهم في سلوكهم داخل أسرهم وفي تعاملهم مع الناس خارجها، ذلك لأن تربيتهم أطفالهم تقوم على ذلك المبدأ القويم: «افعلوا كما نقول ونفعل» أما أن يكون مبدؤهم: «افعلوا كما نقول وليس كما نفعل»، فهذا هو الفساد بعينه والله تعالى يقول. ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾[1] فبأي منطق يظن الأب المدخن أن ابنه سيطيع أمره بتجنب التدخين أو الكف عنه لمجرد أن يؤكد له أنه بالغ الضرر بالصحة؟

أعود فاذكر بأن دور الآباء كقوامين بالضبط الاجتماعي في عملية التنشئة الاجتماعية في الأسرة رئيس وأساسي وبخاصة أنه أول تعاملٍ فعالٍ يمارس على أطفالهم لضبط أفعالهم فيضعهم في أول الطريق في مسيرة حياتهم الاجتماعية، وفي ذلك يصدق قول الرسول الكريم ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2]

أما وسائل الضبط الاجتماعي التي يستخدمها الآباء فهي

---

١ - سورة الصف. الآية: ٣

٢ - احياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي. الجزء ٨. ص: ٢٥

الثواب والعقاب والحساسية الاجتماعية والخشية من الله تعالى، وهيبة القانون في مراحل متدرجة متوافقة مع مراحل نمو الفرد من الطفولة الى البلوغ وعاطفة الحب التي يبديها الوالدان للأطفال وبخاصة الأم هي الضابط الأول الذي يحملهم على الطاعة حرصاً منهم على دوامه ونموه، وخوفاً من فقده واستبدال الكره به، فالوالدان يستثمران الحب كوسيلة فعَّالة لتعويد أطفالهما على أخلاقهما، وتنشئتهم على هواهما في اطار القيم والأعراف، والتقاليد السائدة التي يلتزمان بها ويخضعان لها، فاذا استجاب الأطفال أظهرا لهم الحب وعبرا عن عاطفتهما عملياً بمكافآت مادية، أما اذا عصوا فانهما يظهران لهم الاستياء وعدم الرضا والقطيعة وفي اطار من المنح والمنع، والتقبل، والرفض يشعر الأطفال بالأمان والاطمئنان أوالتهديد والقلق فيجتهد كل منهم في طاعتهما ويحاول قدر استطاعته تجنب ما يغضبهما

والوسيلة الثانية التي يستخدمها الوالدان في ضبط سلوك أطفالهما في سن مبكرة هي اكسابهم الحساسية الاجتماعية لرأي الآخرين ممن يتعاملون معهم بأية صورة من الصور سواء أكانوا أقارب أم أصدقاء للأسرة أم مجرد معارف، لأن فطرة الانسان التي تدفعه الى معاشرة غيره للأنس بهم، كما يقول ابن خلدون: تجعله أيضاً يرغب ملحاً في الاعتراف به من الآخرين والتعامل معهم، ولذلك يهمه جذب اهتمام من يعاشرهم وكسب احترامهم وتقديرهم، وذلك بحسن مظهره، وعفة لسانه، وكريم أخلاقه، أما اذا كان العكس من ذلك في المظهر والقول والأخلاق فانه يفقد ألفتهم واحترامهم فتلوكه الألسنة بما يكره، ويصبح عرضة للسخرية

والتحقير، والقطيعة لأنه من وجه نظرهم خارج عن المألوف والمتعارف عليه والمرضي عنه، وصدق الله العظيم في مخاطبة رسوله الكريم ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[1]

فالوالدان كما رأينا منذ أن يبدأ وعي الطفل بمن حوله يكسبانه بهذه الوسيلة التربوية القوية الأثر حساسية اجتماعية برأي الغير، من كثرة ما يرددون على مسامعه من عبارات مثل «ماذا سيقول الناس عنك؟» «وأين ستذهب من كلام الناس؟» و «الناس ستضحك عليك»، وهكذا يصبح رأي الناس في الفرد منذ نعومة أظفاره ذا أهمية كبرى، ويكون عامل ضبط اجتماعي فعال في سلوكه في مختلف التجمعات الاجتماعية، وهذه الحساسية الاجتماعية هي أصل الحياء الذي يكفه عن فعل ما يشينه، ويتفاوت انفعال الحياء بين الناس قوة وضعفاً، تبعاً للنوع والعمر وبيئة النشأة والطبقة، نظراً للتفاوت في درجة الاهتمام ومقدار الضغوط، ولذلك كانت الاناث أشد حياء من الذكور، وكان الصغار أقوى حياء من الكبار، والريفيون أعظم حياء من أهل الحضر، والطبقة الوسطى أكثر حياء من الطبقتين العليا والدنيا، أما قلة الحياء وانعدامه لعدم غرسه في النفس في الصغر فانه يؤدي الى قلة الأدب، وسوء الخلق وقديماً قالوا «اذا لم تستح فاصنع ما شئت»

وهناك وسيلة ثالثة للضبط الاجتماعي بالغة الأهمية، قوية الأثر

---

١ - سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

يستخدمها الآباء ومن يشتركون معهم من الكبار في عملية التنشئة الاجتماعية، وهي الدين أي النظام السماوي الذي بعث الله تعالى رسله به لهداية الناس الى صراط مستقيم، فتصلح أحوالهم ويهدأ بالهم، والحق أن غرس المبادىء الدينية في نفوس الصغار في سن مبكرة منذ أن يبدأ وعيهم ويقوي ادراكهم على الايمان بالله والحرص على الفوز برضاه وكسب ثوابه، والعمل على اتقاء سخطه وتجنب عقابه، كل ذلك يجعلهم ينشأون على التقوى، ومن كان تقياً كان صالحاً ومن كان صالحاً كان مقبولا عند الله محبوباً من الناس، ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾[1]، والاسلام شرعة ومنهاج ينظم شئون الحياة ويحدد معاملات الناس بعضهم مع بعض وذلك وفق أوامر يطيعوها ونواهٍ عليهم أن ينتهوا عنها، ومن ذلك يتضح أثر الدين كضابط اجتماعي يؤدي وظيفة بعمق وقوة لنشر السلام والاستقرار في المجتمع، والتجاء الأسرة اليه كوسيلة للضبط الاجتماعي يدعم دورها كهيئة تسهر على تيسير عمليته وتقوية أثره

أما الوسيلة الرابعة التي تستخدمها الأسرة للضبط الاجتماعي فهي القانون الوضعي الذي يمكن الحاكم من بسط سلطانه على من لا يزعه الدين في الكف عن الظلم والعدوان، فالاسرة تربي صغارها في سن مبكرة وتوعيهم بوجود الدولة وأنها تيسر للمواطنين بأجهزتها السياسية وهي الوزارات المتعددة التى تلتزم كل منها بتقديم خدمات معينة في ميدان الحياة الاجتماعية، كالتعليم والاعلام والثقافة

---

١ ـ سورة آل عمران. الآية: ١٩

والاقتصاد والصحة والأمن والزراعة والصناعة والتجارة، وهذا ما يعرف بالتربية الوطنية التي جعلت منها وزارة التعليم مقرراً دراسياً في مدارسها، ولئن كانت وزارة الداخلية هي المنوطة بالضبط الاجتماعي بالدرجة الأولى، وذلك بحفظ الأمن والمحافظة على النظام العام، فان الوزارات الأخرى تسهم في الضبط الاجتماعي بلوائحها التي تنظم تعامل الناس في ميادينها، ولا يعني تأكيدنا دور وزارة الداخلية في عملية الضبط الاجتماعي تخويف الصغار وارعابهم من رجل الشرطة كما تفعل، من أسف، بعض الأسر وانما يبرز دورها في خدمة المواطنين والسهر على أمنهم وحمايتهم من الأشرار الذين تسول لهم أنفسهم الخروج على القانون والعدوان على الناس.

تلك هي الوسائل الرئيسة التي تستخدمها الأسرة في أداء دورها كهيئة للضبط الاجتماعي، وكلما كان أداؤها دورها هذا وأبناؤها في مرحلة مبكرة من حياتهم كان نجاحها أوفر، لأن التعلم في الصغر كالنقش في الحجر سهل ميسر، أما الاهمال في أدائه أو التراخي فيه، أو تأجيله تدليلا لهم حتى يشد عودهم فأمر خطير للغاية لأن من شب على شيء شاب عليه، ومن لم يربه والداه رباه الزمان، فشيَّبه قبل الأوان، والبوصري يقول:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

والواقع أن نفس الانسان محتاجة الى الضبط الاجتماعي بكل وسائله وبخاصة اذا فسد الزمان، وأخذ التحرر من قيود القيم الدينية

والأخلاقية ينتشر كما هي الحال في المجتمعات الغربية في هذه الأيام، الى درجة جعلت أولي الأمر في بعضها، يلغون من القانون الجنائي عقوبات على أفعالٍ يحرمها الدين لأنها منافية لطبيعة الاجتماع البشري، الذي لا يتسنى له الانتشار والدوام الاَّ بالتزاوج بين الذكر والأنثى وما ينتج عنه من تكاثر وعمران، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ...﴾[1] وفي الوقت نفسه أصبحت الكثيرات من النساء كارهات لدورهن في تربية أبنائهن اعتقاداً منهن أن ذلك يعرقل سعيهن للمساواة بالرجال، وفي عصرنا الحاضر أيضاً بلغ من انشغال كثير من الأمهات بالعمل خارج البيت أو بما يوفر لهن الترفيه والمتعة أن تركن رعاية أطفالهن، وتربيتهن لأجنبيات غريبات القيم واللسان وغير متخصصات، وبذلك ضعف دور الأسرة في هذه الحالات كهيئة للضبط الاجتماعي، فتكامل الأسرة وقيام كل من الزوجين بدوره في تنشئة الأبناء وتربيتهم وضبط سلوكهم وفق القيم والمعايير الاجتماعية السوية السائدة شرطان أساسيان لحفظ النظام العام واستقرار المجتمع وانتشار الأمن فيه

فالأسرة مسئولة عن تربية الضمير الاجتماعي في نفوس أبنائها بما تدخله في أذهانهم من أفكار عن الضبط سواء بالتعليم المباشر أو عن طريق القصص وما ينشر في الصحف من حوادث تقع في

---

١ ـ سورة النساء. الآية: ١

المجتمع، وتمس الضبط الاجتماعي بصورة واضحة تجعل العبرة منها أكيدة، فالضمير الاجتماعي يلازم الفرد طول حياته، فيصبح رقيباً على أفعاله في السر والعلن وبخاصة اذاكانت شحنته الأساسية تقوى الله تعالى، ايماناً به وخضوعاً لأوامره وتجنباً لنواهيه، انها التقوى الصادرة عن الضمير الاجتماعي اليقظ، التقوى التي نتوارث قصتها عن السلف الصالح عبرة هادية، عندما أقدمت امرأة على غش اللبن في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه وخوفتها ابنتها عن عقابه، فلما ردت أمها بقولها «ولكن الخليفة لا يرانا» قالت ابنتها على الفور «انه ان لم يكن يرانا فان الله يرانا»

وهكذا يظهر الفرق واضحاً بين الأم التي ما زالت بها رواسب من الجاهلية التي ولدت فيها ونشأت طفلة واستدمجت بعض قيمها التي ظهر أثرها في هذا الحاضر الفاسد الذي طرأ في ذهنها، وبين ابنتها التي ولدت في ظل الاسلام وشربت من معينه واهدت بهديه فنشأ جيلها في خشية الله وطاعته، وكان النصر حيلفهم في بلاد الشام والفرس ومصر، مهد الحضارات العظيمة

ونختم الحديث عن دور الأسرة كهيئة للضبط الاجتماعي بتوجيه الاهتمام الى وسائل الاعلام التي أصبحت في العصر الحاضر تسهم معها بنصيب شديد الأثر في عملية الضبط هذه وعلى رأسها في المحل الأول ذلك الجهاز الرابض في كل بيت، التلفزيون الذي سحر أعين الناس واستهواهم، وقد ظهر بجواره الفيديو بأشرطته التي يحوي بعضها المعرفة النافعة وبعضها الآخر السم الناقع

واذا كنا نطلب من الآباء أن يكونوا أسوة حسنة لأبنائهم بمراقبة سلوكهم أمامهم وضبط تعاملهم معهم، فمن باب أولى ضبط تشغيل التلفزيون والفيديو انتقاء الصالح المفيد من البرامج والأشرطة لتشاهده الأجيال الصاعدة في ظل رعاية الكبار المجربين وحمايتهم، وبخاصة بعد أن أصبحنا في بداية عصر الأقمار الصناعية، وبثٍ فكري لمختلف المذاهب والمشارب يقدمه من أطباق متسعة اعلاميون مختلف النزعات والأغراض الى عقول نهمة مجهدة ونفوس قلقة متوترة يصبح اغواؤها سهلا ميسراً، هكذا تكون عملية الضبط الاجتماعي محكمة ويكون دور الأسر فيها شاملاً متكاملاً فتصلح الأحوال وينتشر الأمن وتطمئن النفوس ويعم السلام،